الباب الرابع:

في الشبهات المتعلقة بالمواقف من الإفتاء

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقف العلماء والمشايخ.

الفصل الثاني: موقف المؤسسات والحركات.

الفصل الثالث: موقف العامة من الناس.

الفصل الأول:
موقف العلماء والمشايخ

قالوا: لماذا لا نرى المشائخ والعلماء مهتمين بهذه القضية لو كانت حقاً.

والجواب: إن المشائخ على خمسة أنواع:

النوع الأول:

اتخذ من الشيخة وظيفة ومهنة للكسب، فهو حين يتحرك في المجتمع فإنما يراعي رضى من أوصله إلى هذه الوظيفة فإن رضي عن تلك الحركة دعا وجمع من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء والأئمة ما يدعم هذا التحرك، وإلا فإنه إما أن يحجم ويجتنب الإعراب عن رأيه أو الإفصاح عن الحكم الشرعي في القضية ويكون بذلك شيطاناً أخرس، وإما أن يتجرأ على قول الزور والبهتان وقلب الحقائق وتزويرها على الناس بجمع أدلة ونصوص شرعية ليلبس بها الحق لباس الباطل أو يلبس بها الباطل لباس الحق مستغلاً عدم اكتمال علم الكثير من العامة والخاصة ليرضي بذلك من أوصله إلى هذه الوظيفة غافلاً عن الآخرة والجنة.

وفي هؤلاء قال ﷺ فيما روته عنه عائشة رضي الله عنها: (من طلب رضى الله بسخط رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)[1].

(١) رواه الترمذي بإسنادين في أحدهما رجل لم يسم، وفي الآخر رواه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ولم يرفعوه، وروى ابن حبان المرفوع منه فقط. انظر جمع الفوائد جـ ٢، ص ٦٩٧ بالهامش، رقم الحديث ٩٦٩٢.

النوع الثاني:

اتخذ من العلم أداة للوجاهة عند الناس العامة منهم والخاصة، فهو يسعى إلى البحث عن القضايا التي تلفت أنظار الناس إليه فيتبناها ويتحدث بها دون مراعاة للحقيقة الشرعية فيها لا من حيث الزمن ولا من حيث الفعل.

فلا ينتظر من أمثال هؤلاء أن يتصدوا لحمل قضيته قد تعرض أرواحهم أو أموالهم للهلاك بسبب قوة المعارض والرافض لها، فهم ينتظرون الوقت الذي تحوز فيه القضية تأييد الأكثرية من الناس العامة أو الخاصة ليركبوا الموجة ويطلقوا لألسنتهم العنان في الدعم والتأييد لأنهم أمنوا على أنفسهم وأموالهم في هذه الحالة.

وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿**إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾[1].

وفيهم أيضاً يقول ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة، يعني ريحها»[2]، ويقول: «من طلب العلم ليباهي به العلماء ويماري به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس فهو في النار»[3].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال فيمن هذا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٣.

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم. انظر الترغيب والترهيب جـ ١، ص ١١٥ باب الترهيب من تعلم العلم لغير وجه الله تعالى.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي ورمز السيوطي له بالحسن، أي لتعدد طرقه إذ لا تخلو من مقال انظر فيض القدير جـ ٦، ص ١٧٦ رقم ٨٨٤٠، وأشار اليماني إلى أن له طريقاً بنحوه لابن ماجه رجاله ثقات عن خالد بن دريك عن ابن عمر لكنه لم يسمع منه، انظر جمع الفوائد جـ ١، ص ٤٥، رقم ٢٥٦ و ٢٥٧.

حاله: «ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، قرأت ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار»[1].

النوع الثالث:

جبان يخاف على نفسه وعلى ماله، ويخشىٰ أن يلحقه بسبب طرح شيء من الحق لم يألفه الناس أو لا يسمح به أصحاب النفوذ فآثر السلامة في وقت كان في إمكانه أن يحسن العرض والمناقشة والدعوة باعتماد الحكمة في أسلوبه ليؤلف الله تعالى قلوب الناس عليه إذا صدق مع الله فيكون الناس له غطاءً أمنياً بما يلقى الله تعالى عليه من الهيبة فلا يجرؤ عليه أعداء الأمة السريون والعلنيون وإذا نالوا منه شيئاً فهو في سبيل الله تعالى، وسبيله الجنة، كما قال تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**[2].

وعن ابن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تودع منهم)[3].

النوع الرابع:

لهم من العلم نصيب لكنهم ضعف فيهم الإدراك عن الإحاطة بمسألة معينة تطرح عليهم، فلم يتمكنوا من فهمها على الوجه المطلوب فراحوا بدلاً من التوقف عن اتخاذ الموقف منها وإبداء الرأي فيها يوجهون سهام النقد غير الواعي بسبب عدم استيعابهم للقضية أو المسألة وتعجلهم في إعطاء الرأي فيها.

وقد كان الأولى بهم ولما يستوعبوا المسألة بعد أن يحتفظوا برأيهم حتى تتم

---

(١) رواه مسلم والنسائي والترمذي وابن حبان. انظر الترغيب والترهيب جـ ١، ص ٦٢ باب الترهيب من الرياء.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٣) رواه أحمد والبزار بإسنادين ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد انظر مجمع الزوائد جـ ٧، ص ٢٦٢.

صورة المسألة في أذهانهم وتكتمل أدلتها لديهم حتى إذا ما فعلوا ذلك وأعطوا رأيهم كان له اعتباره وحرمته عند الناس فتزداد ثقة الناس بهم في دينهم وآرائهم.

وقد كان الإمام مالك رحمه الله تعالى معروفاً بالتأني في إصدار الفتوى وإبداء الرأي حتى كان يشتغل فيها أياماً وربما منعته الطعام والشراب والمنام حتى يقف فيها على الرأي الصحيح، وكان لأسلوبه هذا في التعامل مع المسائل والقضايا أثر كبير في سرعة تلقي الناس لأرائه واعتبارها والإهتمام بها لأنها كانت تصدر عن فكر وروية وبحث وتقدير.

فلا يجوز أن يكون من صرف الكثير من جهده ووقته في بحث مسألة أو قضية، ثم أبدى رأيه فيها مساوياً لمن أعطى رأيه في المسألة فور سماعه بها، ولما يعرف حقيقتها وأدلتها بعد، فإن هذا لم يحترم رأيه وبالتالي فلا يستحق رأيه الإحترام من الناس.

ولذلك كان الاعتبار في الشرع وفي العادة لقول ذوي الخبرة والمعرفة والاختصاص فيقدم قولهم على قول غيرهم لوقوفهم على دقائق ما يتعلق باختصاصهم ومعارفهم.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يقدمون أقوال بعض الصحابة عند الاختلاف على بعض، لأن النبي ﷺ قد أشار إلى اختصاصهم ببعض المميزات فقال: «ارحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)[1].

النوع الخامس:

جعلوا من أنفسهم جنوداً لله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين فسخروا طاقاتهم

---

(١) رواه الدارقطني والترمذي عن أنس مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وله طرق مختلفة كما في كشف الخفا جـ ١، ص ١١٧ رقم ٢١٣.

العلمية والبيانية في التعريف بالحق والدعوة إليه والتعريف بالباطل والتحذير منه قياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتتحقق صفة الخيرية لهذه الأمة بذلك كما قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[1]، ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[2] ليحفظوا بذلك الأمة من أن تصل إلى ما وصل إليه من قبلها من الأمم حين تخلى أهل العلم عن دورهم في الترشيد والتحذير فأصابت اللعنة العامة والخاصة منهم كما قال تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليهم ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون**﴾[3].

وقد حذر النبي ﷺ من السكوت على المنكر فقال: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم تلا هذه الآية، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم»[4].

وهذا النوع من العلماء هم الذين يجعلهم الله تعالى بتأييد العامة لهم سبباً

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨١.

(٤) رواه أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي، ورواه الترمذي في التفسير من سننه باب (٤٨) من تفسير سورة المائدة جـ ٨، ص ٤١٤ رقم ٥٠٣٩.

في نجاة المجتمع كما قال ﷺ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم وقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

فالواجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس كما بينه الله تعالى في كتابه لا كما يريد أهل النفوذ والجاه والسلطان لأن هؤلاء في الغالب إنما يسعون إلى تحقيق شهواتهم واتباع أهوائهم التي وراءها الشيطان الرجيم وعملاؤه من الجن والأنس فتؤدي مجاملتهم ومتابعتهم إلى هلاك العباد والبلاد.

ولهذا كانت المسئولية على العلماء كبيرة فيعظم أجرهم عند الله تعالى يوم القيامة إن هم أدوا حق الله في علمهم ويعظم جرمهم إن هم داهنوا في دين الله ومنعوا حق الله في علمهم فيستحقون بذلك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾[2].

فهل يستوي هذا الصنف مع واحد من الأصناف السابقة، وهل يجوز أن يجعل موقف واحد من تلك الأصناف حجة على هذا الأخير، فليس من الإنصاف جعل هذه الأصناف متساوية في الأخذ عنها والإعتداد بقولها ومواقفها، وقد قال تعالى: ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾[3]، ﴿**لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب**﴾[4].

---

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة: وفي كتاب الشهادات باب القرعة في المشكلات جـ٣، ص ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

دور وحدة الولاء في إصلاح حال العلماء:

إن توحيد الولاء في الأمة على مرجع واحد وهو الإفتاء سيؤدي إلى النظر بعناية في أوضاع العلماء لسد حاجتهم من الناحية المادية والمعنوية عبر بيت المال المركزي في الإفتاء ليكون لهم نصيبهم منه بالمعروف باعتبارهم القائمين على توجيه الأمة وتعليمها دين الله تعالى وبث أسباب المحبة والمناصرة فيما بين أفرادها لتحقيق الولاء فيها لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين ليتماسك المجتمع المسلم أمام هجمات الخصوم والأعداء في أساليبهم المختلفة ضد هذه الأمة فلا يقعون تحت ضغط الحاجة والعوز ولا يخافون في قول كلمة الحق لومة لائم لأنه لا سلطان لذوي النفوذ عليهم إلّا الإفتاء الذي هو مؤتمر بأمر الله تعالى فيهم، فتصلح الأمة بصلاحهم وتقوى الأمة بقيامهم بواجبهم وتصير الأمة بذلك محلاً لإكرام الله تعالى لها وعطائه فيرفع عنها الغلاء والبلاء وتسلط الأعداء، فإلى إنقاذ الأمة وتصحيح المسيرة وتحمل المسئولية يا ورثة الأنبياء يا ملح الطعام وسادة الأنام.

الفصل الثاني
موقف المؤسسات والحركات

قالوا: لو كانت هذه الفكرة أو هذا المشروع خيراً لوجد التأييد من فلان وفلان من زعماء الحركات أو الدعاة فما بالهم لم يستجيبوا وهم أهل الخبرة والمعرفة.

والجواب: إن القضية مطروحة بنصوصها الشرعية وتبريراتها الواقعية، فلم نجد لهم على النصوص مأخذاً ولا على التبريرات حجة معتبرة، إنما حمل الكثير منهم على الرفض الكبر أو مراعاة المصالح الخاصة.

فكانوا بذلك قد حاكوا حال الذين رفضوا الدعوة في عهد النبي ﷺ حيث أنكروا الدعوة إذ لم يلتحق بها كبراء القوم ﴿**وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم**﴾[1].

الميزان في معرفة الحق:

فالحق لا يعرف بكثرة الاتباع وحسب، وإنما يعرف بمدى استمداده وانسجامه مع الميزان الذي تركه لنا رسول الله ﷺ وهو الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾[2]، ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾[3]، ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن**

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

هم إلّا كالأنعام بل هم أضل﴾[1]، **﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾**[2].

ولذلك عاب الله تعالى على المشركين احتجاجهم بالأباء والأجداد في رفض الدعوة دون أن يتفكروا بأنفسهم فيما دعاهم إليه محمد ﷺ فقال تعالى: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب أليم﴾**[3]، **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أولوا كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾**[4]، **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا أولو كان أباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾**[5].

متى تؤخذ الكثرة بعين الاعتبار:

فليس للكثرة عبرة في ميزان الحق في حال وجود النص الشرعي، وليس للموقع عبرة في ميزان الشرع إذا وجد النص الشرعي.

لأن الكثرة كثيراً ما تقع تحت تأثير خداع المغرضين وتضليلهم كما قال ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا كافراً وإنما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان يقول ما تقولون ويفعل ما تنكرون﴾[6].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

(٦) رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن علي بن أبي طاب مرفوعاً بلفظ: (إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً: فأما المؤمن فيحجزه إيمانه وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون) وفيه الحارث الأعور، وقد وثقه ابن حبان، وروى من طريق آخر بنحوه عند الطبراني من طريق عمران بن حصين مرفوعاً في الكبير والبزار ورجاله محتج بهم في الصحيح رواه أحمد من طريق عمر بن الخطاب. انظر الترغيب والترهيب جـ ١، ص ١٢٧.

ولأن أصحاب المواقع العالية إنما يتعاملون مع الآخرين من خلال الحفاظ على مواقعهم إلا من رحم الله منهم، فهم متهمون في حال التأييد كما هم مهتمون في حال المعارضة حتى يثبت صدقهم في موقفهم ﴿**قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[1] لأنهم حين يتخذون الموقف الذي يحقق مصلحتهم يسعون لاضفاء صفة الشرعية أو ال[illegible] أو الحكمة أو نحو ذلك على مواقفهم لكسب التأييد الشعبي المادي والمعنوي.

علماً بأن من هؤلاء الزعماء لهذه الحركات والتنظيمات من يعرب عن تأييده لهذا المشروع في السرّ بيني وبينه ولكن إذا خلا إلى محسوبيه وأتباعه طعن في المشروع، ومن يطرحه حتى اشبهوا بذلك من قال الله تعالى فيهم: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا أمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾[2].

فلا يجوز أن يعلق على موقف مثل هؤلاء كبير اهتمام عند أولى العقول والنهي لا في رفضهم ولا في توافقهم على ذلك الرفض.

تعليل رفضهم:

إن لأكثر هؤلاء الزعماء في الحركات والتنظيمات والأحزاب ارتباطات خارجية يحصلون بواسطتها على الدعم المادي والمعنوي ليكونوا فروعاً ومراكز عمل تابعة للجهة التي يستمدون منها ذلك الدعم، فإذا دخلوا في مسيرة وحدة الولاء على الإفتاء انقطعت عنهم تلك الإمدادات لأنهم بذلك لم يعودوا يحققون تطلعات الداعمين وأهدافهم.

ولذلك فإنهم يسعون دائماً إلى معارضة هذا المشروع حفاظاً على مؤسساتهم وحركاتهم من الذوبان في الكيان الإسلامي العام من جهة، وحفاظاً على المكاسب الشخصية التي يحققونها من خلال تزعمهم لهذه الحركات

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤.

والمؤسسات من جهة أخرى ولكنهم يخفون هذه الحقيقة وراء ما يثيرونه من شبهات وتشكيكات تارة في الموقع وتارة فيمن يشغله.

تعليل توافقهم:

ومن هنا فلا غرابة في أن تكون مواقف أكثر هؤلاء الزعماء لهذه الحركات منسجمة بعضها مع البعض الآخر، وإن كان بينهم خلاف وشقاق ونزاع كبير، لأنهم أصبحوا أمام خطر مشترك في ظنهم، وهو الذوبان في الجسم الإسلامي العام عن طريق وحدة الولاء للإفتاء.

ونحن لا نسيء الظن في أحد من العاملين في الحقل الإسلامي ولكننا نقول إن هناك مقدمات تقود عند توفرها في شيء إلى نتائج حتمية كمعادلة جبرية أو جملة حسابية.

فالولاء حقيقة شرعية دلت عليها نصوص الكتاب والسنة دلالة صريحة وقطعية وهي وجوب وحدة الولاء بين المؤمنين والتحذير من الفرقة والنزاع لما يؤدى إليه من إضعاف الأمة وتطويعها في النهاية لعدوها كما قال تعالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا**﴾[1]، أي على التنازل عن الآراء والأهواء والمصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾[2].

وإذا كان الله تعالى مع الأمة فلن يغلبها أحد على وجه الأرض: ﴿**ان ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[3].

تحذير:

فمن رفض مشروع وحدة الولاء من هذه الحركات والمؤسسات بعد ذلك

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

فإنه يكون سبباً في إضعاف الأمة أمام عدوها سواء كان رفضه ناشئاً عن حسن نية بأن جهل كيفية التعامل مع الواقع من خلال النصوص الشرعية أو كان ناشئاً عن سوء نية بأن كان مرتبطاً في السرّ مع جهات معينة يحقق أهدافها وإن على حساب الأمة في مجموعها لقاء حصوله على منافع شخصية ومكاسب ذاتية متخذاً من الطعن في المشروع غطاء في رفض الإنضمام إلى مسيرة وحدة الأمة الإسلامية.

وما دام أن النتيجة واحدة في الحالين وهي تفكيك الأمة وتمزيقها وإضعافها ثم تركيعها في النهاية لعدوها الطامع في أرضها وحقوقها ومواقعها فإن حسن النية لا يشفع لصاحبه في الحقيقة والواقع.

ويتأكد هذا المعنى حين لا يتقدم المعارضون لهذا المشروع بمشروع بديل يحقق وحدة الأمة على أسس صحيحة وواقعية للحيلولة دون تذويبها في الآخرين باستغلال الصراع بين تنظيماتها وحركاتها لإضعافها بإذكاء هذه الصراعات ثم الوثوب على حقوقها.

للحركات والتنظيمات حالتان:

ونؤكد على أن الجسد الإسلامي بحاجة إلى هذه الحركات والتنظيمات كحاجته إلى الأفراد والشخصيات، لأن الأفراد فيه بمثابة الخلايا، ولأن الحركات فيه بمثابة الأجهزة العاملة، كجهاز البصر وجهاز السمع وجهاز التنفس وجهاز الهضم وجهاز الدم وهكذا، ولكن هذه الأجهزة إنما تكون مفيدة للجسد إذا كانت مرتبطة بالدماغ في الرأس من خلال الجهاز العصبي تأتمر بما يوجهه إليها من أوامر، وإلا فإنها لا فائدة فيها لتحولها إلى أجهزة ميتة أو مريضة أو مشلولة في البدن تعيق حركته أو تنشر فيه الضعف والفساد.

الحالة الأولى:

تكون فيها عوامل بناء وقوة في الأمة وذلك فيما إذا وحّدت ولاءها على مرجع واحد.

الحالة الثانية:

تكون فيها معاول هدم وتخريب وإضعاف في الأمة وذلك فيما إذا تعددت ولاءاتها بتعدد مراجعها.

فيجب أن يكون سعي المخلصين في الأمة في الجمعيات والجماعات والحركات والأحزاب والتنظيمات والشخصيات مكثفاً وحثيثاً لتوحيد الولاء للوصل بالأمة إلى شاطىء السلامة من بحار الأخطاء التي تحدق بها من كل جانب.

الفصل الثالث:

موقف العامة من الناس

قالوا: إن طرح المشروع على العامة من الناس يجعل المشروع صرخة في وادٍ أو نفخة في رماد، وإن الواجب أن يطرح مع الخاصة وبعيداً عن الأضواء.

والجواب من وجهين:

الوجه الأول:

أن المشروع لم يطرح أول الأمر على العامة، وإنما جرى طرحه على الخاصة من مختلف القيادات والشخصيات الإسلامية من خلال اللقاءات والزيارات، ثم جرى كتابة المشروع في بحث مستقل وتم تصويره وإرساله إلى عدد كبير من الشخصيات الإسلامية في لبنان لعرض الأمر عليهم وطلب إبداء الملاحظات عليه سواء كانت بالسلب أو بالإيجاب ليستفاد منها في تكميل أو تفعيل المشروع تمهيداً للإنتقال به نحو التطبيق العملي على الأرض.

وقد تفاوتت ردات الفعل ممن جرى مقابلتهم من الشخصيات بين مؤيد ومعارض ومتحفظ لأسباب متفاوتة: شخصية أو مبدئية أو حزبية أو لعدم استيعابه للموضوع وأبعاده العقائدية والتشريعية.

وقد خلق الله تعالى الخلق وقسم بينهم الأرزاق والمواهب وفاوت ما بين المواهب كما فاوت ما بين الأرزاق.

والسعيد من اتعظ وتفكر وتدبر فيما يسمع من كلمة الحق وتابعها بعد ثبوتها

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1]، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[2]، ﴿كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[3].

الوجه الثاني:

أن طرح المشروع على الشارع الإسلامي العام في خطوة ثانية بعد الإتصال بالمسئولين على اختلاف مواقعهم من تنظيمات وحركات وأحزاب وجماعات وجمعيات وشخصيات إنما كان لأمرين:

الأمر الأول:

أن أكثر زعماء التنظيمات قد كانوا يستعملون أسلوب المداورة والمراوغة وتعمد الإهمال للبحث في الموضوع وعدم إبداء الاهتمام به بل ومحاولة التيئيس من بعضهم، فيما عمد البعض الآخر إلى المزايدة فيه وإبداء أنه سابق في القناعة في هذا الأمر والسعي إليه لكن توجهاته هذه لم تنعكس على التابعين له في التنظيم على الساحة العملية مما ورث الشبهة في أمر هذا التنظيم: هل إن القيادة تغش القاعدة أم أن الفوضى قد ضربت أطنابها في هذا التنظيم حتى ضاعت فيه مدلولات الألفاظ وحقائق الأمور فأصبح القائد فيه مقوداً والمقود قائداً.

فرأيت أن متابعة البحث مع هذا النوع من بعض القيادات إنما هو صرخة في وادٍ ونفخة في رماد:

لقد أسمعت لو ناديا حياً ولكن لا حياة لمن تنادِ

ولو أن ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

ولذلك فقد اقتضت الحكمة تجاوز هؤلاء الذين لا ينظرون إلى الأمور إلا من خلال مصالحهم الذاتية والحزبية لا من خلال مصلحة الأمة بمجموع أفرادها

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٣٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وأجهزتها، وقد رفضوا بأسلوب غير مباشر مشروع الوحدة خشية الذوبان في جسم الأمة العام فتذهب عليهم مكاسبهم المادية والمعنوية الوجاهية، وإن متابعة الكلام معهم يجعل المتابع كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون، لأنهم يرون الأمة تعاني ويلات التمزق ونزيف الخلاف الذي أوشك أن يأتي على حياتها لتتحول إلى أشلاء ومزق ولقم سائغة في أفواه أعدائها وهم ثابتون على حزبيتهم وراسخون في حبهم لمصالحهم الذاتية والحزبية رسوخ الجبال.

وعندها قررت التوجه بالمشروع إلى العامة من الناس غير المنظمين لأن هؤلاء أسرع استجابة وأقدر على التعرف إلى الحق لعدم وجود الحواجز الحزبية لديهم فسرعان ما يدركون الحق ويؤيدونه.

فلما أحس بعض زعماء الأحزاب الإسلامية ـ أصلحهم الله ـ بذلك سارعوا إلى إبداء الأسف من جراء عرض هذا المشروع على الشارع لأنه سيكشف في نظرهم الخطة أمام العدو فيحبط هذا العمل.

وفي الحقيقة إن طرح هذا المشروع على الشارع أدىٰ إلى إيجاد تيار مؤيد للمشروع مما سيحمل المغرضين من المعرضين على مسايرة التيار خشية انجرافهم فيه لانحرافهم عنه.

حال قواعد التنظيمات مع هذا المشروع:

ولا زال يترامى إلى سمعي الكثير من الأنباء عن حيازة هذا المشروع على تأييد الكثير من الناس غير المنظمين في مختلف المناطق بالإضافة إلى دخول هذه الفكرة إلى أذهان كثير من المنظمين الذين جعلوا يناقشون قياداتهم وبعض مسئوليهم وزملائهم في مختلف التنظيمات يبحثون عن الأسباب الحقيقية التي حملت هذا التنظيم أو ذاك على عدم التجاوب مع هذا المشروع.

فكانت الإجابات المزورة والتهم الباطلة والتدليسات الرخيصة تأتي إلى هؤلاء المتسائلين فضلّ بعضهم عن متابعة الطريق الصحيح الذي سلكه، وتابع بعضهم ما بدأ به حتى وصل إلى قناعة بشأن هذا المشروع، ثم من هؤلاء من أعرب

عنها، ومنهم من احتفظ برأيه مفضلاً تربص الفرصة المناسبة للإعلان عنه كي لا يتخذ التنظيم منه موقفاً سلبياً يؤدي إلى حرمانه من المكاسب التي هو في حاجة إليها في ظل الظروف الاقتصادية الطاحنة التي تمر بها البلاد.

ونحن إذ نوجه إلى هؤلاء التحية ونكنّ لهم الإحترام لندعو الله تعالى أن يلهم إخوانهم في القيادات والمسئوليات وكذا الأفراد الحق وأن يعرفهم به ليتابعوا مسيرة وحدة الأمة لإعادة الكرامة والعزة والقوة لها بعد أن أوقعها تعدد الولاء بتعدد الأحزاب في المهانة والضعف الذي مزقها وذهب بكرامتها، وعرض أرضها وحقوقها ومواقعها للضياع قبل أن يأتي يوم القيامة فيتبرأ الأتباع من المتبوعين والمتبوعون من اتباعهم وتكون الحسرة يوم لا ينفع الندم ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم** بخارجين من النار﴾[1]، ﴿**ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان الإنسان خذولاً**﴾[2].

الأمر الثاني:

أنني حين رأيت دلال قيادات بعض التنظيمات الإسلامية وتعززها وامتناعها ومراوغتها في الوقت الذي يسعى فيه الآخرون إلى اختطاف مواقع هذه الطائفة مستغلين ضعفها لفقدانها للمرجعية والولاء لها تحت مختلف الشعارات الوطنية أو العربية أو الإسلامية سارعت إلى طرح المشروع على العامة من الناس من خلال خطب الجمعة والمحاضرات والحوارات والدروس والمجالس العامة والخاصة والكتابة في بعض الصحف والمجلات، حتى أنشأت مجلة حائطية وسميتها مجلة «الولاء» توزع في عدد من مساجد طرابلس والشمال من أجل لفت نظر الأمة إلى ما يخطط لها في الظلام ومن وراء الكواليس تارة بإحاطة موقع الإفتاء بالشكوك والشبهات لينفض الناس عنه فلا يكون لهم بالتالي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٩.

تأثير على من يمثلهم، وتارة بتوجيه الشكوك إلى من يشغل هذا الموقع للغاية ذاتها، فيتابعهم في ذلك المغفلون والجهلة والمندسون في الأمة لتحويل اهتمام الأمة عن القضية الكبرى الحقيقية التي هي محور وجودهم في لبنان وسبب بقائهم فيه كأمة لها كيانها ومميزاتها وخصائصها والتي لا يمكن في اجتهادنا أن تتحقق في ظل الظروف المحلية والدولية إلا عبر موقع الإفتاء.

ولما كان الآخرون يدركون مدى أهمية هذا الموقع في لبنان راحوا يشككون هذه الأمة بهذا الموقع تارة من خلال عملائهم المدسوسين في هذه الأمة أو من خلال ترشيح بعض شخصياتهم شغل هذا الموقع إما بالأصالة أو بالمداورة تارة أخرى.

فهذا هو الذي حملني على طرح هذا الموضوع على الشارع الإسلامي فهل عليّ في ذلك من حرج أن انبه أصحاب البيت إلى اللص قبل أن يسرق مجوهراتهم ونفائس ما يملكون أو أن انبه البريء إلى الخطر الذي يحدق به **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾**[1]، **﴿ما على المحسنين من سبيل﴾**[2].

---

(1) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٠.
(2) سورة التوبة، الآية: ٩١.